الفصل الأول

(لا يزال لدي أمل)

عندما كنت طفلة صغيرة اعتادت أمي أن تقص علينا حكايات قبل النوم. لا شيء غريب في ذلك، فقد اعتادت الأمهات في جميع أنحاء العالم وفي كل العصور أن يقصصن حكايات على أولادهن؛ ليعلموهم كيف يعيشون في العالم، وما الصفات التي يجب أن ينمّوها في أنفسهم. وهن يقصصن هذه الحكايات ليضمنوا أن أولادهن يرتبطون بالماضي، وأن حياة آبائهم وأجدادهم لن تتلاشى دون أن يعرف أحد من كانوا. لقد كنا لاجئين فلسطينيين في الأردن، وذلك جعل أمي تشعر بحاجة ملحة لضمان أن نحمل معنا جزءًا من أصولنا الفلسطينية. وقد كانت حكاياتها طريقة لتوحيد عائلتنا، بعد أن أوشكت عقود من الحرب أن تشتتها.

وُلد أبي (محمد) وأمي (عائشة) في يافا، وهي مدينة ساحلية قديمة أعطت دورًا مهمًّا لفلسطين في التجارة على مر آلاف السنين. ولطالما رغبت الشعوب الأخرى في الحصول على مدينة يافا، التي تعرف أيضًا باسم (عروس فلسطين). ففي العصور القديمة احتل المصريون والآشوريون والبابليون مدينة يافا. وفي بداية القرن العشرين احتلت بريطانيا مدينة يافا (مثلها مثل بقية فلسطين) ومنذ عام ١٩٤٨م فرضت إسرائيل حكمًا عسكريًّا هناك.

وُلد أبي عام ١٩١٨م، وترعرع في أثناء سنوات الانتداب البريطاني في فلسطين. وعندما أصبح كبيرًا بما يكفي ليبدأ العمل انتقل إلى تل أبيب، وأصبح يعمل مترجمًا لحساب الجيش البريطاني. كان أبي ذا بشرة فاتحة وعينان زرقاوان، وتعلم تحدث الإنجليزية بشكل جيد، حتى اعتبره الآخرون رجلًا إنجليزيًّا، كما أخبرنا مفتخرًا بعد سنوات عدة، كان أبي يُعدّ رجلًا وسيمًا، وكانت الفتيات البريطانيات والإسرائيليات يحببن التعرف إليه والتحدث معه. لكن بصفته مسلمًا لم يكن يفترض فيه أن يتحدث مع النساء، إلا أنه كان فخورًا بالاهتمام الذي حازه. وقد اعتاد أن يرتدي سراويل قصيرة، كتلك التي كان يرتديها الجنود البريطانيون، وذلك أغاظ أباه وعمه. لقد استمتع أبي بحياة مترجم أعزب صغير العمر يجتذب الأنظار، ولم يكن يهتم كثيرًا بالاستقرار، إلى أن قرر والداه أن الوقت قد حان لكي يتزوج، وينشئ عائلة. كان أبي في عقده الثالث حينها، وكان أخواه الأصغران قد تزوجا قبله؛ لذلك كان يسبب الحرج لوالديه.

وُلدت أمي عام ١٩٣٢م، وترعرعت في العباسية، وهي قرية تبعد نحو اثني عشر كيلومترًا عن يافا. وكان لها ثلاثة إخوة وأربع أخوات. ولم يكن من المعتاد آنذاك أن تذهب الفتيات إلى المدرسة، لذلك كان على أمي أن تسلم بالأمر، وتشاهد أخويها يذهبان إلى مدرسة داخلية. كان أخوها الأكبر يدرس باجتهاد، وأصبح مدرسًا، لكن أخاها الآخر كان كثير الغياب عن الحصص، لذلك اضطر إلى أن يرجع إلى البيت. وبقيت الفتيات في المنزل يخطن الثياب، وينقلن الماء من البئر. وكانت أختا أمي الكبيرتان تعدّانها بنتًا لهما، لكن أمي كانت على علاقة وثيقة مع أختيها الصغيرتين. وأحيانًا كان ثلاثتهن يلتقين فتيات القرية، ويمرحن مع بعضهن إلى أن توشك الشمس أن تغيب، ثم يعدن مسرعات للبيت لتناول العشاء.

لم يتجاوز عمر أمي ستة عشر عامًا، عندما علمت أن والديها كانا يتحدثان مع والدي أبي بشأن زواجها. فقد تحدث والد أبي مع أخيه الذي كان لديه ثلاث بنات غير متزوجات في منزله، وقرر كلاهما أن يزوجا أمي لأبي. ففي أواخر عقد الأربعينيات اعتادت الفتيات أن يتزوجن وأعمارهن صغيرة جدًّا، ما دُمن قد مررن بأول حيض لهن. اعتزم البريطانيون مغادرة فلسطين في القريب العاجل، واندلعت الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين فورًا، بعد أن أعلنت الأمم المتحدة خططها لتقسيم فلسطين. جعلت هذه الحرب الناس ينسون قيمهم، وكان الرجال الذين من المفترض أن يصبحوا أزواجًا وآباء ومالكي محالّ تجارية في وقت السلم مغتصبين في وقت الحرب، ولم ينجُ منهم حتى الفتيات اللواتي لم تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وخاف الآباء الفلسطينيون على بناتهم ألا يقدرن على العثور على زوج إذا فقدن عذريتهن، لذلك اتخذوا ترتيبات سريعة.

قدم أبي إلى يافا لزيارة عمه والد أمي. كان والداي من أولاد العمومة، لكن لم يعر أحد ذلك اهتمامًا. فقد كانت هذه العادة شائعة حينها، وساعد على ذلك أن العائلات كانت تعرف بعضها جيدًا، وكان والد أمي واثقًا أنه سيرسل ابنته إلى عائلة جيدة ستعتني بها، إلا أن أولاد وبنات العم لم يترعرعوا ليلعبوا مع بعضهم، كما هو الحال في البلدان الغربية. لذلك لم تلمح عينا أمي أبي إلا بعد أن تمت الخِطبة، ولم يتحدثا مع بعضهما، إلا بعد أن تزوجا.

علمت أمي أن والدها يرتب لزواجها، وأن الرجل الذي سيصبح زوجها في طريقه لمنزلها. ولأنها كانت خائفة من هذا الرجل الذي سيخطفها من منزل والدها ركضت مع أخواتها الصغار إلى غرفة النوم، وألقين بطانية فوق رؤوسهن ليختبئن، لكن عندما سمعت

أمي وقع الأقدام في الطريق المؤدي للباب الأمامي، سيطر عليها فضولها، وتسللت نحو الباب، وانحنت محدقة من خلال ثقب المفتاح لتلقي أول نظرة على زوج المستقبل. رأته رجلًا وسيمًا، لكنها كانت خائفة من الصورة التي ستكون عليها حياتها الجديدة، وعندما كانت تخبرني بهذه الحكاية في صغري كانت لا تذكر أنها كانت خائفة من ليلة العرس بالذات؛ لأنني كنت صغيرة، ولم أعرف بعد ما هو الزواج.

قبل أن يتمكن والداي من الزواج رحلت عائلتاهما إلى دير ياسين، ثم دير قديس؛ هربًا من العنف المتزايد في يافا والعباسية. ورحلت عائلة أمي مع بعضهم حريصين على أن يتواروا عن أعين الجنود الإسرائيليين، وفي الطريق كان على الرجال أن يحفروا حفرة كبيرة تتسع لنحو سبعين شخصًا، نزل الجميع إلى الحفرة، واستطاعت جدتي بطريقة ما تعليق قطعة قماش كبيرة في الوسط، حتى تعزل الرجال عن النساء، وفي أثناء النهار كان أحد الرجال يتسلق الحفرة ليجلب الماء، ورجل آخر يفرغ الجرة التي كان الجميع يستخدمونها مرحاضًا. ولأن أوراق الشاي قد نفدت منهم منذ مدة طويلة، قامت جدتي بوضع القليل من السكر على معلقة، وحرقته حتى تحول إلى سائل ذي لون بني أشقر يمكن تحريكه في كأس من الماء. على الأقل كان ذلك السائل يشبه الشاي.

عندما وصلت العائلة إلى دير قديس اشترى والد أمي منزلًا، وأسس محلًّا صغيرًا لبيع الحصائر والسلال المنسوجة من القش أو أوراق النخيل، وكان يقوم بشراء المواد من البلدة، ثم يبيع المنتجات في المدن، خاصة في مدينة القدس المجاورة. تعلمت أمي وجدتي كيف تصنعان الحصائر والسلال، وأصبحتا قادرتين على المساعدة. ولأن والد أبي قد خسر كل شيء عندما اضطروا فجأة إلى مغادرة مدينة يافا، بدأ هو أيضًا بالعمل في المحل الجديد.

وبعد مدة قصيرة من استقرار العائلات في دير قديس، تم اتخاذ ترتيبات زواج والديّ. كانت الأوقات عصيبة، لذلك لم يناقشوا مهر العروس، وحصلت أمي على بعض المال من والدها لشراء القماش لتستعمله في خياطة ملابس جديدة لتلبسها، عندما تتزوج. تزوج والداي عام ١٩٤٨م، وهو العام نفسه الذي تخلى فيه البريطانيون عن احتلال فلسطين، وبسبب الحرب لم يُولِ أحد في العائلة اهتمامًا بالمفروشات الغالية، ولا بتملك بيت كبير، وذلك جعل عملية التخطيط للزفاف أسهل بكثير.

كانت تقاليد الزفاف المعتادة مازالت متبعة، ووعدت جدتي أمي بأن زفافها سيكون زفافًا رائعًا على الرغم من عدم توافر المال، وكانت أمي هي الأولى في العائلة التي تحصل على حافلة لتُزفّ بها في موكب الزفاف. فقد حُملت شقيقتها الكبرى، ولُفّ بها في البلدة في موكب من الخيول مع زوجها الجديد وعائلتيهما الممتدتين ليعلنوا زواجهما. وعندما تزوجت أمي خرج الناس من بيوتهم مدهوشين بهذه الفتاة المحظوظة التي أقلتها إلى بيت زوجها الجديد حافلة كبيرة مليئة بقريباتها وصديقاتها.

لكن لم تستمر هذه اللحظة السعيدة طويلًا. فإضافة إلى ثقل وطأة الحرب، كان على أمي أن تواجه ضغط عائلتها عليها لتنجب أطفالًا. ففي تلك الأيام إن لم تصبح المرأة حاملًا خلال الأسبوع الأول من الزواج يبدأ الجميع في الاعتقاد بوجود مشكلة؛ لذلك قام والداها بإجبارها على رؤية أطباء في القدس، لكنهما لم يكونا مقتنعين، حتى عندما طمأنهما الأطباء مرارًا وتكرارًا بأن السبب يرجع فقط لعمرها الصغير، ولا شيء يدعو للقلق. إلا أن الجميع شعر براحة كبيرة، عندما أصبحت أمي حاملًا بأخي البكر بعد ثلاثة أشهر من زواجها، في ذلك الحين أصبح مستوى العنف في دير ياسين وقديس يوازي مستوى العنف في يافا، وكان على العائلة الانتقال من بلدة إلى أخرى؛ لتجنب القنابل والعيارات النارية.

كان لوالديّ أربعة أبناء خلال مدة بقائهما في فلسطين: أولهم أخي هشام، ثم أختي نعمة، وأخي بهجت، وأختي سميرة، الذين عاشوا في فلسطين طوال الخمس عشرة سنة الأولى من زواج والديّ. اشتد القتال بين الفلسطينيين والإسرائيليين، خلال تلك السنوات رحل والداي إلى بلدة بيرزيت، وأقاما فيها مدة قليلة. فعندما تبدأ التفجيرات من جديد كانت عائلتي تحزم بعض أمتعتها، وتنتقل إلى مدينة جديدة. وعام ١٩٦٣م رحل والداي مع أبنائهما إلى الأردن؛ بحثًا عن حياة أفضل لهم، واستقروا في عمّان، عاصمة الأردن.

وُلدت أنا في عمّان في ١٤ آب ١٩٦٦م. وفي العام اللاحق اندلعت حرب الأيام الستة في فلسطين بين العرب والإسرائيليين، وتدفق مئات آلاف الفلسطينيين إلى الأردن. قبل الأردنيون هؤلاء المقيمين الجدد، لكن نشأ الكثير من التوتر بينهم. فلم تتعامل كلتا المجموعتين مع بعضهما كثيرًا، وغالبًا ما كانتا تعيشان في أحياء منفصلة. واقتصر من كانوا يعيشون في حيّنا على الفلسطينيين. وخلال الأسابيع القليلة التي أعقبت عيد ميلادي الرابع اندلعت حرب أهلية بين الأردنيين والفلسطينيين. كان شهر أيلول من عام ١٩٧٠م شهرًا فظيعًا، لدرجة أنه أطلق

عليه اسم (أيلول الأسود) ففي أقل من أسبوعين مات آلاف من الناس، وتم في غمرة ذلك الاضطراب تبني القانون العرفي، ما جعلنا محتجزين في حيّنا.

عاشت عائلتي في منزل يتميز بصفات تلك المنطقة، لم تكن الغرف مترابطة من الداخل، بل من الخارج من خلال فناء كبير. فإذا كنا موجودين في غرفة النوم، وأردنا أن نذهب إلى المرحاض أو إلى تناول وجبة خفيفة في المطبخ كان علينا أن نعبر أرضية الفناء الأسمنتية لنصل إلى غايتنا، احتوى المنزل على غرفتين صغيرتين نعيش فيهما، بينما ازداد عدد أطفال عائلتنا ليصل إلى ستة أطفال، إلا أننا كنا مرتاحين في الغالب. وكان أبي جنديًّا يقاتل بجانب الفلسطينيين، ولا نراه إلا مرة في الأسبوع تقريبًا. وبقيت أمي وحدها تعتني بستة أطفال.

كانت أعمار جميع إخواني وأخواتي فوق السابعة، وهو الوقت الذي يُفترض أن يتعلموا فيه الصلاة، لكن يجب عليهم أن يكونوا نظيفين قبل أن يصلوا، وذلك ما يسمى الوضوء. لذلك على الرغم من أن الجنود الأردنيين كانوا يطوفون الحي كانت أمي تخبر خمسة منا بأن يبقوا في غرفة النوم، بينما تأخذ كل طفل على حدة للمرحاض ليتوضأ. وكنت أظل في غرفة النوم أعتني بأخي الصغير (محمود)، وكنت ألفّ أحيانًا منديلًا حول رأسي متظاهرة بأنني أمي. وبعد أن يصلي جميع الأطفال الكبار كانت أمي تخبرنا جميعًا بأن نظل في غرفة النوم، وتذهب هي للمطبخ لتعدّ طعام الغداء.

في أحد الأيام، وبينما كانت أمي في المطبخ، كان علي استخدام المرحاض، لكنها لم تسمعني أنادي عليها. فتحت الباب، وزحفت نحو المرحاض، كلي حرص أن أبقى بجانب الجدار؛ حتى لا يراني الجنود في الشارع. لكن عندما وصلت إلى منتصف المسافة عبر الفناء سمعت صوتًا مُدويًّا لطلقات نارية، وتجمدت في مكاني. لم أدرك أنني كنت أصرخ، إلا عندما رأيت باب المطبخ يفتح على مصراعيه وأمي مسرعة نحوي. أمسكت ذراعي بغضب.

«ألم أخبرك بأن تبقي في غرفة النوم؟! لماذا لم تطيعي أوامري؟!».

«كان علي الذهاب إلى المرحاض»، نشجت قائلة.

سمع جندي كان يمر بجانب البيت صوت أمي تصرخ، وبدأ يطلق النار من فوق الجدار. دفعتني أمي مرتجفة في اتجاه الجدار، وجرّتني إلى المرحاض. بقينا هناك برهة، ثم مشت مشية مستقيمة، وجعلتني أزحف بين كاحليها. وعندما عبرنا الفناء فتحت باب غرفة النوم، ودفعتني للداخل.

على الرغم من هذه الحادثة حاولنا أن نعيش حياة طبيعية قدر المستطاع، واستمرت حياتي في معظمها كما كانت. لقد كنت في الرابعة من عمري، ولم أفهم إلا أن الجنود كانوا يقطعون وقت لعبي. وكانت (ابنة عمي سائدة وابنة خالتي منيرة) تعيشان في حينا، وكانتا في عمري نفسه تقريبًا. اعتدنا أن نلعب لعبة الغميضة، ونلقي على بعضنا الألغاز، ولم نتوقف خلال أيلول الأسود عن اللعب في الخارج، لكننا كنا نهرع للداخل كلما سمعنا هدير الدبابات في الشارع، أو كلما رأينا جنودًا أردنيين بمشيتهم العسكرية وبنادقهم المتأهبة لإطلاق النار على أي جندي فلسطيني يجدونه مختبئًا وراء جدار. وكنا نحدق من خلال النافذة ونراقب، قلوبنا تخفق بسرعة، إلى أن يصبح الشارع هادئًا مرة أخرى، فنركض مسرعين للخارج لنكمل اللعب.

في إحدى الأمسيات أتت منيرة إلى منزلنا للعب. انتظرنا سائدة، لكنها لم تحضر؛ لذا قررنا أنا ومنيرة أن نمشي إلى منزلها الذي يبعد عنا نحو صف واحد من البيوت، وعندما قرعنا الباب أدخلنا عمي دون أن يقول كلمة. كان يبدو كئيبًا ومتعبًا، لكننا لم نعر ذلك اهتمامًا، ثم رفع ذراعه مشيرًا إلى غرفة سائدة، فركضنا داخل الغرفة لنجلبها.

«سائدة! سائدة! لماذا لا تأتين للعب معنا؟».

وجدنا سائدة مستلقية منهكة على فراشها، ووجهها تملؤه الحمى.

«سوف أموت».

هذا سخيف، الأطفال في عمر الرابعة لا يموتون. إنهم يصابون بالحمى دائمًا، لكنهم يتناولون الدواء، ويتحسنون، بدأت أصرخ عليها.

«لا! لا! توقفي عن قول هذا! سوف تعيشين، وسوف نلعب مع بعض في الخارج!».

ركضت نحو عمي، وتوسلت إليه أن يعطي سائدة بعض الدواء حتى تتحسن. مسح الدموع من عينيه، وأمسك يدي، وأخبرني بشيء لم أستطع فهمه في ذلك الحين.

«إن الجيش الأردني يحاصر المنطقة يا فدوى، ولا يستطيع أحد مغادرة هذه المنطقة أو الوصول إليها. لذلك لا يمكننا الحصول على الدواء».

«عمي، فقط اذهب إلى الصيدلية. وإن لم تستطع الذهاب أعطني نقودًا، وأنا سأذهب وحدي للحصول على دواء لسائدة. أنا كبيرة كفاية».

عانقني عمي بشـدة، وكان كل جسـمه يرتعد، بينما كان يبكي، وكان جسـمي يرتعد معه أيضًا.

«أنت لا تفهمين شيئًا يا فدوى».

طلبت أنا ومنيرة من والدينا أن نبقى مع سائدة في أثناء مرضها، ووافقا. وبقينا بجانبها مـدة ثلاثـة أيام. وأتى عمي باكرًا في صـباح اليـوم الثالث من بقائنا ليطمئـن عليها، ثم قبّل جبينها، وغطى وجهها بملاءة. لم أعرف لِمَ فعل ذلك؟

«عمي، كيف ستقدر سائدة على التنفس؟».

«إنها ذاهبة إلى مكان أفضل يا فدوى».

اعتقدنا أن ذلك يعني أنه سـيأخذها للطبيب. وفي اليوم اللاحق سـألت أنا ومنيرة عمي متى يمكن لسائدة أن تخرج، وتلعب معنا؟

«لن ترجع أبدًا،» قال عمي، وهو ينظر إلى السماء. «إنها هناك في الأعلى الآن».

بعـد أن انتهـت الحرب انتقلـت عائلتي إلى منـزل أكبر في حـي جدرانـه لا تملؤها ثقوب الرصاص. بدأنا حياة جديدة محاولين أن ننسى الحرب. وانتقلت عماتي مع عائلاتهن إلى الحي نفسـه، جميعهم يسـكنون على بعد صفين من البيوت من منزلنا. عمي فقط هو من انتقل للعيش بعيدًا عنا، فبعد أن ماتت سائدة لم يرغب في أن يعيش بالقرب منا، فرؤية أبناء إخوانه وأخواته يلعبون، ويكبرون كان يذكره دائمًا بكل لحظة من لحظات الحياة التي لن تعيشها ابنته أبدًا.

فـي غمرة كل هذا الاضـطراب في حياتي وأنا صـغيرة، اعتادت أمـي أن تخبرني بحكايات لا تدور حول طفولتها فحسـب، بل أيضًـا بحكايات خيالية تنسـيني الحـرب والموت، ولو لحظات معدودة. فقد كانت تخبرني أنا وإخوتي الصـغار بأسـطورة فلسـطينية فلكلورية مشـهورة بطلها اسـمه (ظريف الطول)، وهو شـاب وسـيم لكن فقير كان يخوض مغامرات في مدن كثيرة ليجمع البرتقال والعنب ليثبت حبه لعتابة، وهي صبية لم ترد الزواج منه دون موافقة أبيها الغني. أرسل أبوعتابة ظريف الطول إلى جميع أنحاء فلسطين، وحتى مصر قبل أن يوافق أخيرًا على زواجهما.

اسـتمعت لحكاياتها مبتهجة، وحلمت بأشـياء رائعة يخبئها لي المسـتقبل. حلمت بأنني سـأكبر، وألتقي رجلًا يناضـل لينال يدي، رجـلًا أحبه ويحبني ويتزوجنـي، وننجب كثيرًا من

الأطفال، نربيهم ليصبحوا مسلمين صالحين. كانت صورتي هذه عن حياة البلوغ سندًا لي، بينما كان العالم الخارجي لا يحتمل.

لا تخبرنا أمهاتنا وجداتنا بهذه الحكايات ليكذبن علينا، بل ليمنحْنَنا الأمل، ويجعلْنَنا نؤمن برهة بأن حياتنا في عمر البلوغ ستكون حياة ساحرة. وما علينا أن نكتشفه بأنفسنا هو كيف نحيي هذا الشعور بالأمل، عندما لا تتحقق أحلام طفولتنا. كان هذا لي درسًا في الحياة، فقد تبيّن أن زوجي الذي اختاره والداي لي لم يكن (ظريف الطول) وأطفالي قد أخذوا مني ليعيشوا بعيدين عني، ليس هناك سحر يشفي من ألم الماضي، ويُرجع أطفالي إلى حضني، لكن علي إكمال حياتي.

إن سعيي وحيدة لإيجاد حياة ذات معنى، بل حتى حياة ساحرة، قد جعلني أختبر التشرد، وأعمل مدة قصيرة في الجيش الأمريكي، وأعيد مرات عدة تشكيل صورتي عن نفسي. لقد طُرحت أرضًا مرات عدة، لكن في كل مرة كنت عازمة على النهوض والمحاولة مرة أخرى. لم يخفف أحد عني مشكلاتي، لكن لا أستطيع أن أستسلم لبراثن اليأس فـ(**لا يزال لدي أمل**).